رستم باشا في لبنان

لاحد فضلاء اللبنانيين

هو تلياني الاصل من بيت شريف ولقبهُ الكونت دوماريني . وقد رأيت في بعض الكتب انهُ جاء الاستانة العليَّة طفلاً مع والدتهِ حيث ربي عند رجل من كبار رجال الدولة من اصدقاء عائلتهِ فلما شبَّ دخل في سلك الجيش وشهد حرب القرم ونال فيها رتبة الميرالاي ثم انتقل الى الخدمة الملكيَّة فظهرت فيها كفاءتهُ لمناصب السياسيَّة ولم يزل يترقى من هٰذا الطريق حتى صار سفيرًا للدولة في بطرسبرج وهو المنصب الَّتي كان فيهِ قبل تعيينهِ متصرفًا لجبل لبنان . و يقال انهُ اعتنق الدين الاسلامي قبل ذلك وسمي مصطفى ثم اضطرَّ ان يتظاهر بالنصرانيَّة لكي لاتعترض روسيا على تعيينهِ فيها سفيرًا

وكان قد توالى عَلَى لبنان متصرفان قبل تعيين رستم باشا نذكر اخبارها اجمالاً بيانًا للحالة الَّتي كان عليها الجبل قبل ولايتهِ . اما الاول فهو داود باشا الارمني الاصل الذي تولى بعد وضع النظام الامتيازي لجبل لبنان على اثر مذابح سنة ١٨٦٠ وثانيهما فرنقو باشا الحلبي الذي خلف داود باشا بعد استعفائهِ

كان داود باشا شديد الميل الى جبل لبنان غيورًا على مصلحتهِ حريصًا على حقوقهِ راغبًا في توسيع دائرة حدودهِ حتى خيَّل لرجال الدولة العثمانيَّة انهُ يعني نفسهُ بالاستقلال فيهِ . فلما داخلهم هٰذا الخوف اخذوا يسعون في اسقاطهِ قبل الاجَل المقرر لمدة ولايتهِ وهي عشر سنوات . ولو كان عزلهُ ممكنًا لرجال الدولة بدون اقرار الدول الاوربيَّة الموقعة على نظام الجبل لفعلوا ولكن احكام النظام قضت بغير ذلك فشرعوا يدبرون لهُ المكايد حتى يسقطوهُ باقرار تلك الدول . و بينما هم على ذلك سنحت لهم فرصة موافقة فانتهزوها. ذلك ان داود باشا اراد ان يعين قائمقامًا لقضائي كسروان والبترون اللذين كانا في هٰذا العهد قضاء واحدًا فسأل بطريرك الطائفة المارونيَّة عن الرجل الذي يريد ان يراهُ في هٰذا المنصب فاختار البطريرك يوسف بك كرم صاحب المكانة العليا والكلمة النافذة في تلك البلاد . ثم اتفق ان قنصل فرنسا الجنرال طلب هذا المنصب نفسهُ للامير مجيد شهاب ابن الامير قاسم بن الامير بشير الكبير حاكم لبنان المشهور واحتَّ في الطلب فلم يسع المتصرف الاَّ اجابتهُ مراعاة لكلمة فرنسا اذ ذاك في كل ما يتعلق بشؤون لبنان نظرًا لقرب العهد باحتلالها اياهُ . فاثر ذلك في البطريرك تأثيرًا كان يرجى زوالهُ على اثر عتاب واعتذار ولكن فؤاد باشا كان متربصًا يرصد الفرص

فعظم الامر في عيني البطريرك لعلمهِ ان الموارنة وهم ثلثا اهل الجبل يغضبون لغضب بطريركهم ويرضون لرضاهُ وهم لا يسألون لماذا غضب ولماذا رضي . ولم يزل يلقي الدسائس بين هذا وذاك حتى اتسع الخرق وصارت فتنة يخشى شرها . ثم اوهم يوسف بك كرم بانهُ من الممكن تعيينهُ متصرفًا للجبل او على الاقل الرجوع إلى النظام السابق نظام القائمقاميتين فيكون هو القائمقام المسيحي الدائم لا متصرّف فوقهُ . فاغترَّ يوسف بك كرم بوعود فوّاد باشا وقام بثورة حقيقيَّة نازل فيها عساكر الدولة مرارًا ففاز في بعض المواقع فوزًا مبينًا على قلة رجالهِ ولكنهُ اضطر اخيرًا إلى التسليم لدولة فرنسا التي اخذت بناصر داود باشا وايدتهُ بنفوذها سواء كان في داخليَّة الجبل حيث منعت انتشار الفتنة او في مراكز السياسة الخارجيَّة حيث احبطت مساعي رجال الدولة . وهكذا انتهت الفتنة ولم يسقط داود باشا . غير ان فوّاد باشا لم يكن يعرف اليأس من النجاح في اي امر طلبهُ بل كان ممن يعرفون لكل غاية اربعين طريقًا توصل اليها . فلما رأى ان الطريق الاول لم ينته بهِ الى الغرض المقصود اخذ يسعى اليهِ من طريق آخر فاظهر مزيد الاخلاص والولاء لداود باشا اولاً ثم اغراهُ عَلَى ان يطلب ضم بعض البلاد المجاورة لجبل لبنان إلى متصرفيتهِ وعاهدهُ عَلَى تأييد مطالبهِ وحملهُ على ان يعرض استعفاءهُ من منصبهِ ان لم يجب طلبهُ وذلك بعد ان اوهمهُ بان الدولة محتاجة الى بقائهِ في لبنان بعد ان اخمد الفتنة فيهِ فلا يسعها اذ ذاك الاَّ اجابة الطلب . فاغترَّ داود باشا بكلام فوّاد باشا وجرى عَلَى حسب مشورتهِ فقبلت الدولة استعفاءهُ وهكذا نالت متمناها من فصلهِ عن متصرفية لبنان قبل انقضاء مدة العشر السنوات المقررة لهُ . وبعد خروجهِ من الجبل تولَّى مناصب سامية في الاستانة وخدم الدولة خدمًا جليلة في بعض المسائل الماليَّة ثم كانت نهايتهُ انهُ فرَّ من الاستانة حين وفاة عالي باشا الذي كان سندهُ الاكبر ولم يرجع اليها بل مات في ايطاليا سنة ١٨٧٤ مغضوبًا عليهِ من الدولة

اما فرنقو باشا فكان رجلاً ساذجًا غير ممتاز بشيء من صفاتهِ عن عامة الناس وكان سخيف الرأي قليل الحزم بذيء اللسان في اوقات غضبهِ فكان بالاجمال اشبه بالسوقة منهم بالامراء غير انهُ كان سليم الطوية محبًّا للانصاف كثير الاحسان الى الفقراء . ومن غريب الاتفاق ان اهل الجبل الذين حرموا داود باشا لذة النوم ثم اقلقوا راحة رستم باشا مدة طويلة كما سيجيء معنا كان عليهِ هذان الرجلان من الحزم ومضاء الهمة وطول الباع في السياسة لم يأتوا باقل حركة في مدة ولاية فرنقو باشا . فكانت تلك المدة مدة صفو وهناء لا يزال اهل الجبل يذكرونها حتى الآن . ذلك ان فرنقو باشا كان يبتعد عن اسباب الخلاف جهدهُ ويفرّ

عن موقف الخصام من كل باب ولو اضطر الى الغض من كرامته وكان كثيرًا ما يحلف بحياة اكليروس الطائفة المارونية فارضاهم بذلك . واما الدولة فكانت راضية عنهُ بالطبع لانهُ لم يكن يعرف لكلمة الاستقلال معنىً حتى ولا في المنام . وفوق ذلك كلهِ ساعدتهُ الصدف برجال صادقين من ارباب الوظائف العالية كانوا يخلصون لهُ النصيحة وكان يتبع مشورتهم فعاش المدة التي عاشها في لبنان مستريح الفكر ناعم البال ومات مأسوفًا عليهِ ودفن فيهِ باحتفال عظيم

ومن اغرب ما يروى عنهُ من النوادر التي تدل على درجة ادراكهِ ان مجلس ادارة لبنان كان يبحث يومًا في ما اذا كان يجب تعديل الضرائب في بعض جهات الجبل على وجه معلوم او ابقاؤها على اصلها فقال ثمانية من اعضائهِ بالتعديل وقال الاربعة الآخرون بابقاء الحالة على ما هي عليهِ . وكان فرنقو باشا يميل الى هذا الرأي الاخير فلما علم ان الاغلبيَّة على خلاف رأيهِ وان القرار سيصدر وينفذ حضر الى المجلس وحاول اقناع المخالفين بالعدول عن رأيهم فلم يفلح . فاطرق برهة يتبصر ثم رفع رأسهُ متبسماً تبشُّم الفوز كمن فُتح عليهِ وقال مستفهماً كم سنة مضى على الحالة القديمة قالوا من عهد وجود هذا المجلس اي ثماني سنوات قال ثماني سنوات وهنا اربعة من الاعضاء يقولون ببقائها فيكون المجموع اثني عشر فالاغلبيَّة ضد رأي الثمانية الباقين . فضحك القوم حتى الاعضاء الاربعة ثم قال بعضهم اذن بعد اربع سنوات يتم للمجلس اثنتا عشرة سنة فننصرف نحن الاثنا عشر عضوًا الى بيوتنا و يبقى دولة متصرفنا مع السنين حاكمًا على لبنان فخجل وانصرف

وبعد وفاة فرنقو باشا قامت كل دولة من الدول الاوربيَّة الكبرى ترشح لمنصبهِ رجلاً ممن ينتمي اليها من رجال الدولة المسيحيين كجاري عادتهم كلما خلا مسند المتصرفية . وكان الباب العالي اذا عرض تعيين رجل ممن يرتاح الى تعيينهِ رأى فيهِ بعض السفراء مغمزًا للطعن فيصرف النظر عنهُ الى ان توفق لذكر رستم باشا فاسكت المعارضين وفازت الدولة بتعيينهِ فوزًا مبينًا لانهُ كان اشد الناس اخلاصًا لها واكثرهم تعلقًا بها حتى ان حبهُ لها لم يترك في فؤادهِ محلاً للميل الى سواها بل افقدهُ الميل الطبيعي الذي يشعر بهِ كل انسان إلى وطنهِ الاصلي وطن آبائهِ واجدادهِ ويقال ان رستم باشا احتال على السفراء حيلة اقنعت كلاً منهم بالانتصار لهُ ففاز برضاهم جميعًا . وسيأتي الكلام على سيرتهِ في لبنان واحوال لبنان في ايامهِ